من عصارة العمر

صراط المواطن الصالح في الحياة خطّها الإمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، حيث قال: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

حياة المرء سلسلة من ثلاث حلقات:

الأولى، هي مقتبل العمر، عهد الصبا والشباب، وعهد التطلّع إلى الغد المترامي بِلا حدود.. إذ تعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً.

والثانية، هي أوسط العمر، عهد البحث عن الذات ثم تحقيقها، غرس الصبا يزهر فيه ويثمر، كلما ارتقيت في سلّم الحياة درجة تطلعت إلى درجة أعلى تليها، وسلّم الحياة لا يُحدّ أفقه إلا السماء.. تعمل إذ ذاك لدنياك كأنك تعيش أبداً.

والثالثة، خريف العمر، إذ يبلغ سلّم الحياة منتهاه، إنه عهد التبصر والتأمل ومراجعة الذات، عهد الإلتفات إلى الماضي لتبرير الوجود، تأبى أن تكون طيفاً قد عبر من دون أن يكون لموطئ قدميه على الدرب أثر.. تعمل إذ ذاك لآخرتك كأنك تموت غداً.

هكذا يعيش المرء حقبتين من العمر كأنه يعيش أبداً، وحقبة كأنه يموت غداً. والفَلَاح، كل الفلاح، لمن يجعل من عمره حقبة واحدة متصلة، يعمل فيها لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً. هؤلاء قلة، وهم الكبار.

في الحقبة الأخيرة من عمري أراني مدفوعاً دفعاً إلى البوح بما في خزان تجارب العمر من دروس وعبر، أتلمّس بها أثراً لموطئ قدم على درب العمل الوطني والقومي في ظروف حفلت بالتحديات الجسيمة على الصعد الوطنية والقومية كافة.

عند بُلوغي الخامِسَة والسبعين من العمر، سُئلتُ عن عُمري فقلت: ما زِلتُ في عُمر الشباب مُنذ ستّين سنة. فالشباب يُقاس بالإنتاج.

هذه رسالتي، من عصارة العمر، إلى حفيدي سليم وجيله. من عناوينها:

أنا لبناني مُؤمِنٌ بلبنان وطناً أعتزّ به، وُلدت فيه وأصبو إلى أن أُوارى الثَرى في أرضه. لو كان للمرء أن يختار وطنه لاخترت لبنان وطناً لي ولإبنتي وحفيدي بملء إرادتي. ولكنني لم أَختره، بل وُلِدت فيه، وأحمد اللّه على قَدَري.

نعم، للتقدم الحضاري بكل أبعاده، ولكن مع الحرص على القيم الوطنية والإجتماعية والإنسانية. الغرب سجّل تقدماً فائقاً بكثير من التكنولوجيا وقليل من القيم. ونحن نصبو إلى مواكبة مسيرة التقدم بكثير من العلم وفيض من القيم.

كل جهد يبذل على مستوى العمل العام لا يكون محوره رفعة الإنسان هو جهد مهدر.

بوجود ثماني عشرة طائفة في لبنان: الطائفية سيف ذو ثمانية عشر حداً، كيفما ضربت به اثخنت جسم الوطن بالجراح.

اللبنانيون أكثر الشعوب احتراماً للقوانين، ولكن غير المكتوبة منها فقط. إنها قوانين الطائفية والمحسوبية والواسطة وحكم المال. كل هذا من عناوين الفساد المستشري في المجتمع اللبناني.

إذا جمعتَ ثروة طائلة فأنت في ميزان المجتمع اللبناني رجل ناجح وأنتَ، تالياً، رجل نافذ. لن تُسأل، في ظل قانون غير مكتوب، كيف صنعتَ مالك، أَبالحلال أو بالحرام، لأن الجاه أيّاً يكن مصدره، حلال. ما اجتمع الجاه والفقر في رجل. وأنت عصامي إذا بدأت حياتك فقيراً وانتهيتَ ثرياً وبالتالي وجيهاً. فالغاية والعياذ بالله تبرر الوسيلة.

الطائفية ما هي إلا وصفة تقوم على كثير من العصبية وقليل من الدين.

فكما أنّ الكاذِب لا يعترِف بكذبه، لأنّه لو فعل لكان صادِقاً، فإنّ الطائفي لا يعترِف بطائفيّته، لأنّه لو فعل لدانَ نفسه.

يبقى المسؤول قوياً إلى أن يطلب أمراً لنفسه. فهو إن طلب أمراً لنفسه بات له ثمن، هو ما يطلب لنفسه.

أدهى ما حلّ بلبنان أن استشرى الفساد في مجتمعه وتغلغل في ثقافته، فبتنا نتحدّث عن ثقافة الفساد حيث الاختلاس والاحتيال والنِفاق وتسخير الضمير كلها في حُكم الشطارة.

كان للمال السياسي دورٌ مُدمِّر جعل الحياة العامة في لبنان أشبه بسوق نَخاسَة تُشرى فيها وتُباع الضمائر والمواقف والأقلام والأصوات، وما ذلك إلاّ على حِساب أبسط القِيَم الأخلاقية والمُجتمعيّة والوطنية.

إنك، بفعل طوفان المال السياسي الذي يغرق لبنان، تكاد تعبّ من لفح الفساد حتى في الهواء الذي تتنشّق.

في أخلاقيات غاب السياسة في لبنان، لا مكان للوفاء أو العرفان؛ ففي منطق الوصولية السياسية لا صداقات ولا تحالفات ثابتة، والقاعدة هي رفقة طريق إلى مأرب معيّن، وكثيراً ما يكون المأرب آنيّاً.

ليس من لعبةٍ في الدُنيا إلاّ ولها قواعد تُسمّى قواعد اللعبة، اللهم إلاّ اللعبة السياسية في لبنان، فهي بِلا قواعد.

كثيراً ما يكون الخَبر في لبنان وجهة نظر، وتكون الحقيقة كما تَبدو لرائيها.

يبقى سلاح الموقف أمضى سلاح في يد الشرعية المستمدّة من إرادة الشعب. إذا غُيِّبت إرادة الشعب أضحت السلطة عزلاء بِلا سِلاح. والخارِج على موقِف الشرعيّة هو فاقِد الشرعيّة وبالتالي في حُكم المَهزوم.

سلاح الشعوب صوتها عندما تطلقه موحّداً عالياً. ولا مردّ لإرادة الشعوب.

لا إصلاح من غير مُصلحين. وعندما تكون مقاليد السلطة في يد غير الصَالحين، فالدعوة إلى الإصلاح تَغدو بمثابة المُطالَبَة بانتحار الطَبَقة السياسية الحاكِمَة. لِذا استعصاء قضايا الإصلاح في بلادنا نحن العرب.

أكثر الحكّام نجاحاً هُم الذين يسيرون على نهج مؤداه: كُلما سقط أمل اخترعنا أملاً جديداً.

إن كان لَنا أن نُوجِز محطّ الإصلاح بكلمة لقلنا: إنّها الديمقراطية. هي نظام وهي ثقافة. هي الوسيلة وهي الغاية. بِها تكتمِل مُقوّمات المُساءلة والمُحاسبة، وبِها تَنفتح آفاق التغيير المُنتظم، وبِها تتوطّد قواعد الاستقرار، وبِها يُحقّق الإنسان ذاتَه، وهذا غايَة الأرب.

من تجلّيات ضمور الممارسة الديمقراطية في لبنان غياب المحاسبة على كل صعيد: فالناخب لا يحاسب النائب، فهو يندد به طيلة عهده في النيابة وعندما يحلّ موعد الانتخاب يعود فيقترع له، والنائب لا يحاسب الحكومة فهو يهاجمها بأقذع العبارات وعند التصويت على الثقة فيها يرفع إصبعه، والحكومة لا تحاسب الإدارة فكأنما لا علم لها بما يتعشش فيها من فساد وتسيّب وعقم، أما القضاء فكثيراً ما تكون عدالته انتقائية.

الحرية والديمقراطية وسائر حقوق الانسان كلها ملك للشعب لا يجوز لحاكم أن يُصادرها. وإن فعل فهو المشكلة وهو القضية. فلا غرو في القول إنّ حكّام العرب باتوا في منزلة المشكلة والقضية في آنٍ واحد.

في لبنان الكثير الكثير من الحرية وإنما القليل القليل من الديمقراطية.

بيننا وبين الممارسة الديمقراطية الصحيحة مسافة العصبيات الفئوية، ومسافة ثقافة الفساد المتفاقم، ومسافة انشغال الناس بشجونهم عن قضاياهم.

مشكلة الناخِب الطيّب في لبنان أنه على استعداد لأن يُلدَغ من جحر الوعود الانتخابية مرتين وثلاثاً. والسياسي يعتصم بمقولة أن كلام الليل يمحوه النهار.

من المسلمات في الحياة السياسية في لبنان أن كلام الليل يمحوه النهار. فهذه بيانات المرشحين للنيابة تُمنّي بالمن والسلوى، وهذه البيانات الوزارية تطلق الوعود والشعارات في أبهى صورة، وهذا خطاب القسم الرئاسي يفتح

آفاق مستقبل واعد، والمواطن على استعداد دوماً لتقبّل هذا الكلام وتصديقه، ليكتشف فيما بعد، بعد فوات الأوان، أن الوعود تخاطب الأحلام وأما الأداء فيستجيب للواقع، وشتّان بين الحلم والواقع.

في ظل مفارقات السياسة في لبنان، كثيراً ما يكون بين الوفاق والنفاق خيط دقيق لا يُرى بالعين المجرّدة.

التخلف واقع يتميز بقوة الاستمرار إلى ما لا نهاية، ما لم تخترقه فتبدّل مساره قوة اعتراضية تتجسّد إما بقيادة تاريخية خارقة أو بهبّة شعبية جارفة، ولا مردّ للتغيير الأمثل في حال تقاطُع الظاهِرتين.

أمام مشهد لفيف من الذين ارتكبوا أبشع الجرائم في حق الإنسانية إبّان الحرب اللبنانية، قصفاً عشوائياً وذبحاً على الهوية وتفجيراً ماحقاً، ثم تسلقوا بعد الحرب أعلى المراتب، نقول: إن بيننا وحوشاً تخطر بين الناس كالبشر، أمّا العفو عنهم فقد كان من قبيل العدالة الانتقائية، وهي ليست من العدالة في شيء.

إنني إذ استنكفت عن توقيع مراسيم بتنفيذ عقوبة الإعدام في حق مجرمين قلت: الله وحده يهب الحياة والله يستردها. فليس من حق الإنسان أن ينتزع حياة إنسان. إن الأمر بالقتل هو في منزلة فعل القتل. فمن منا يرضى بأن يكون قاتلاً، وإن بقلمه. وأنا أستهجن ذبح خروف، فكيف بقتل إنسان؟

أرقى مراتب السياسة التزام الأهداف الوطنية والقومية والإنسانية السامية. بغير ذلك تغدو السياسة مرتعاً للوصولية والنفعية والاستغلال.

ثمّة فارِق بين الاحتراف السياسي والعمل الوطني المُجرّد. فالمُحترِف السياسي هو ذاك الذي يسعى للوصول إلى السلطة، وإذا كان في السلطة فهو يَسعى إلى البقاء فيها، وإذا خَرج أو أُخرِج من السلطة فهو يَسعى إلى العودة إليها. أمّا العمل الوطني فمُجرّد من المآرب السياسيّة. مع أنّني مارست العمل العام نحو ربع قرن من الزمن، فما احترفت السياسة حقاً إلاّ ما بين ١٩٩٢ و٢٠٠٠، حينما طلبت مقعداً نيابياً لنفسي.

إن مَن يُقحمه القَدر في معترك السياسة في لبنان لا يلبث أن يحسد الغاب على شريعته. حتى الغاب له شريعة. في هذه الشريعة لا تَجِد مخلوقاً

يفترِس مخلوقاً من أبناء جلدته. فلا السبع يفترس سبعاً ولا النمر يفتك بنمر ولا الذئب يلتهم ذئباً، ثم إنّ الإفتِراس عُموماً لا يكون إلاّ بِدافِع الجوع. أمّا في غاب السياسة في لبنان فالكُل يفترِس الكُل، والجوع يتحكّم بالنُفوس في كل لحظة.

المُواطِن البريء والفقير هو الحَمَل في شريعة الغاب التي تَسود في بلدنا، فهو يُفتَرَس ولا يَفترِس.

إن استماتة المسؤول في التشبّث بكرسي السلطة لا تفسير لها سوى خشية المسؤول من أن تُفتح ملفاته فيما لو أدار ظهره. لذا فاستمراره هو حماية لذاته.

عروبة لبنان رسالة ودور والتزام في خدمة الأمة، وهي السبيل إلى خدمة الإنسانية.

طريق لبنان إلى العروبة إنما تمرُّ بالضرورة في دمشق، القفز فوقها عبثي، لا بل هو مكابرة.

إن علاقة لبنان المميزة مع سوريا تستوجب رعاية القيادة في البلدين على أعلى المستويات، ولكن حصانتها تبقى رهناً بإرداة الشعبين الشقيقين، وعمق التزامهما.

قديماً قِيل إنّ الحروب أخطر من أن يوكَل أمرها إلى العسكريين وحدهم. ومثل هذا القول يصحّ على علاقات الأخوّة الصادِقَة بين بلدين شقيقين، فهي أعظم من أن يوكَل أمرها إلى أجهزة عسكرية أو أمنية.

إن اتحاد العرب يفترض جهداً دؤوباً ومنهجياً من أجل تحقيق التقارب بين أنظمتهم، على قاعدة ترسيخ مقومات الحرية والديمقراطية والعدالة والانفتاح في كل قطر عربي. بذلك فقط يكتسب الإتّحاد شرعيته الشعبية.

إنّ ما يجمع بين العرب من لُغةٍ وثقافة ومصالح مشتركة هو أعظم مما يجمع بين الأوروبيين، ولكن ما يُفرِّق بين العرب هو أيضاً أشدّ وأدهى، ويتجسّد في حكّامهم وبالتالي في أنظمتهم. لِذا القول إنّ طريق العروبة إنما تمرّ في الديمقراطية.

عندما يُواجه المواطن مشكلة وقضية، فمن المُحتّم أن تطغى المشكلة في نفسه على القضية، رُبما إلى حد تغييبها. لا تَسَل أُمّاً تَبحث عن قُوتٍ لطفلها كيف تُحرّر القدس، فجوابها سيكون «هاتِ قوتاً لطفلي».

جاء في كلام الله تعالى في كتابه الكريم: «كلٌّ من عليها فان». وها هم الحكام العرب يقدمون الشواهد يومياً على أن «كل من عليها أميركان». وامعتصماه! هذا أيضاً وضع فانٍ.

إذا كان الشارع العربي مغيّباً عن قضيتي فلسطين والعراق، فذلك لأن الشعوب العربية غارقة في مشاكلها، ومنها القمع والفقر والقهر والأفق المسدود والتخلف على أشكاله. كأنما هناك من تعمّد ونجح في إلهاء العرب بمشاكلهم عن قضاياهم. الأكيد أن أنظمة الحكم في الأقطار العربية مطمئنة إلى هذا الواقع. وهذا إنما ينمّ عن أن أنظمة الحكم في دنيا العرب أمست هي المشكلة وهي القضية في آن واحد.

كأني بالفدائي يبذل روحه، ويا للمفارقة، من أجل حياته، أو بالأحرى من أجل أن يكون لحياته معنى وقيمة. فما معنى الحياة عند امرئ يرزح تحت نير الذلّ والهوان والقهر والتشريد والفقر؟ وما قيمة الحياة عند من يشقى في أتون الضيق والعسر والشدّة ولا يرى الضوء في نهاية النفق؟

إن كسب القضية الفلسطينية على ساحة الرأي العام العالمي يفترض تفادي استهداف المدنيين. إن مقاومة العدوان ظاهرة طبيعية لا بل هي واجب وطني، ولكن المقاومة لا تكون بالسلاح وحده، فكثيراً ما تكون المقاومة المدنية أبلغ أثراً.

الحرب في فلسطين ستنتهي بانتصار الحق والعدل، فأي حرب في التاريخ لم تنتهِ؟

قد يكون للقوة الغاشمة على الطريق صولات وجولات ولكن الصِراع، أيّ صِراع، لا يتوقف في نهاية المطاف إلا بانتصار الحق.

إن مشروع إقامة وطن فلسطيني موحّد على امتداد رقعة فلسطين التاريخية،

يتعايش فيه العربي واليهودي جنباً إلى جنب، هو الوحيد الذي يكون حلاً وليس مجرّد تسوية. ودون الحل تسوية لا تضمن رضى الفلسطيني، فيبقى الواقع نهباً لعدم الاستقرار وعدم الاطمئنان وخطر الانفجار.

نجوت في عام ١٩٨٤ من محاولة اغتيال بتفجير سيارة مفخخة اعترضت سبيلي فأودت بحياة سائقي وثلاثة في الشارع. ما شعرت بالخوف من الموت يوماً قبل هذا الحادث، ولم أعد بعده أَفْقه معنى الخوف من الموت، إذ وعيت معنى القول المأثور: إن من كتب الله له عمراً لا تميته شدّة.

أمام الأخطار التي اكتنفتنا خلال حقبة الحرب اللبنانية، بتنا نقول: إن من لا يموت صدفة إنما يعيش صدفة. كم من اللبنانيين الذين عاشوا الحرب اللبنانية هم اليوم في واقع الحال يعيشون بحكم الصدفة. أوَ ليست الحياة كلها سلسلة متصلة من الصدف؟

الحرية كالحياة، أبهى ما فيها وأكرم أن تُشرِك سِواك فيها.

هذا برسمك يا حفيدي.. يا سليم.

سليم الحص